حَرّمت الظلم عَلى نفسيْ فَلا تظالموا ..

للشيخ علي عبد المنعم عبد الحميد
المستشار الثقافي بوزارة الاوقاف والشئون الاسلامية

عن ابى ذر ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه انه قال : ((يا عبادي اني حرمت الظلم علي نفسي ، وجعلته محرما فيما بينكم ، فلا تظالموا . يا عبادي ، كلكم ضـال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم . يا عبادى ، كلكم جائع إلا من اطعمته ، فاستطعموني اطعمكم ، يا عبادى كلكم عـار إلا من كسوته ، فاستكسوني اكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليـل والنهار ، وانا اغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادى ، لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم ، كانوا على اتقى قلب رجل واحـد منكم مـا زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، مـا نقص ذلك من ملكى شيئا ، لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسـالوني ، فاعطيت كل واحد مسالته ما نقص ذلك مما عندى ، الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر ، يا عبادى ، انما هى اعمـالكم احصيها لكم ، ثم اوفيها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)) رواه الامام مسلم فى صحيحه .

١ ـ **يا عبادي** : ورد هـذا اللفظ فى القرآن الكريم كثيرا فى مواضـع عدة(١) وكذلك فى الأحاديث الشريفة ، ومن أوضح ما قيل فى المعنى المراد من لفظ العبـد اذا أضيف الى الله تبارك وتعـالى هو : من يسـلم الأمر كله لله سبحانه ، ويبرأ من حول نفسه وقوتها ويعلم يقينا بأن الله بيده ملكوت كل شيء . فلا يحزن على فائت ، ولا يفرح بآت ، وانما يمتثل الأمر والنهى كما وردا عن الصادق فى غير التواء ولا ضجر ، ثم يطلب العون من الله وحـده ويمضى فى

الحياة غير هياب ولا وجل مرددا :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

إني حرمت الظلم على نفسي ... الخ : الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وهذا ينشأ ، اما عن جهل أو تجبر . فالظلم الناشيء عن الجهل . كالذي يصدر من العامة أحيانا حين يصيب أحدهم داء في جسده ، فيذهب الى الحداد يطلب طبا لدائه لأنه سمع أن الكي يحسم الداء العضال أحيانا . فظن الحداد خبيرا في هذا المجال وكيف لا ولديه المسمار والمحماة . ولو أبى صاحبه حرصا على حياته لرماه بالجهل ظلما وعدوانا ، ومثل ذلك ما حدث لأحد الأطباء الاخصائيين الأفذاذ في أمراض العيون حين ادخلوا عليه رجلا حطمت رجليه سيارة عابرة ، فأحاله على طبيب عظام ، فثار به القوم ولولا بقية من عقل لكان ضحيتهم .

والثاني — منشؤه الغرور وحب السلطان . فاذا وسد الأمر الى غير اهله ، سجنوا وقتلوا وعذبوا واعتدوا على المال والأعراض تحت ستار الحفاظ على الأمن ، والسهر على سلامة الناس ، واقامة العدل وانصاف الشعوب .. الخ ، وامثلة ذلك اكثر من أن تحصى وهي مسطورة على صفحات التاريخ قديمة وحديثة(٢) ، والجهل والعدوان محالان على الله تعالى فلهذا لا يصدر عنه ظلم : **ومن الناس — وما اكثرهم — من ينصب ظلمه على نفسه ، فيجحد آيات الله ، ويكفر نعمه ، فيحل عليه العذاب (وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون(٣)) .**

كلكم ضال إلا من هديته(٤) : وفي محكم الكتاب : (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله) . والهداية الحقة ، هى التوفيق الى الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، والبحث في هذا وضده غير خاف ، جال فيه فلاسفة علماء ، وعلماء فلاسفة ، وإيماني : **(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب)**

فاستهدوني اهدكم : يجب على العبد ان يتجه الى الله تعالى اتجاها كاملا راغبا في رحمته طالبا هدايته ، وهداية الله لعباده تكون باقامة الأدلة الواضحة على وجوده وقدرته ، ونحن مفتقرون اليه مذعنون لحكمه ، نسأله جلت قدرته أن يفيض علينا من القوى العقلية والحواس الظاهرة والباطنة ما نتمكن به من ادراك قيوميته وعظمته حتى نكون من المهتدين .

كلكم جائع إلا من اطعمته : اشارة الى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وان ما في السموات والأرض ملك له ، ويعطى عباده بقدر (وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) . وهو جلت عظمته يعلم ما ينفع العباد

---

(١) منها : « واذا سالك عبادى عنى فانى قريب » ومنها « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ... »

(٢) ... والا فاى عدل فى ابادة الملايين فى الحروب العدوانية ، واى عدل فى اجلاء الآمنين عن ديارهم واموالهم ، واى عدل فى كل ما نشاهده ونراه من عاد ومعتدى عليه فى زماننا هذا ، سبحانك ربى ان هذا لظلم عظيم) .

(٣) ... وفى القرآن الكريم (ان الشرك لظلم عظيم) .

(٤) الهداية لطف من الله حين تستعمل فى الخير ، وقد ترد على سبيل التهكم فى المجال الثانى ومنه (فاهدوهم الى صراط الجحيم) ..

وما يضرهم ، ولهذا فاوتهم في الاقدار وما يملكون ، وفي بعض الآثار الشريفة (ان من عبادى من لو اغنيته لفسد حاله وان منهم من لو أفقرته لفسد حاله) .
وقال سبحانه في شأن البعض (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) .

فاستطعموني اطعمكم : جرت حكمة الله انه لا يسوى بين العامل الجاد فى طلب الأفضل من الحياة ، والقاعد المتكاسل المخلد الى الأرض ، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وانما هى سعى وجد وداب وعمل ، والله وحده الموفق للأسباب ، المبارك فى النتائج ، والإسلام دين عمل بحق ، واليد العليا خير من السفلى . وعبرة ومثل يؤخذان من حادثة الصحابى المدقع الذى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب صدقة . وهو مفتول العضل قوى الساعد . فأمره عليه الصلاة والسلام أن يعود الى بيته باحثا عن شيء ذى قيمة مهما ضؤلت ، وقفل الرجل راجعا بحلس وقعب ، عرضهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحاضرين فى مزايدة علنية ، وكان أن بيعا بدرهمين سلمهما الرسول الكريم الى الرجل ليشترى بهما حبلا وفأسا ، وقال امض بحبلك وفأسك واحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ولما انقضى الأجل رجع الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فسأله ما وراءك ؟ واجاب : احتطبت وبعت ثم اشتريت لأهلى طعاما وكسوة ، وفضل معى بعض الشيء ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام (هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة سوداء فى وجهك يوم القيامة) .
اقول : هذه الواقعة تشير الى ان المسلم لا يقبل منه التواكل وسؤال الناس ما بأيديهم ، فالمراد بالاستطعام هنا ، هو السعى مع رجاء التوفيق وبث البركة فى الكسب ، والعاقل من توكل على ربه وسأله العطاء مع المزيد من العمل والغدو فى سبيل العيش ، كالطير تغدو خماصا وتعود بطانا .

كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني اكسكم : قريب فى فهمه وشرحه مما مضى فى الفقرة السابقة والكل يشير الى افتقار العباد الى خالقهم ، ووجوب اتجاههم فى كل أحوالهم اليه سبحانه ، يدعونه ويرجون رحمته وعونه (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم : وغفران الذنوب متحقق بفضل الله ولا شك ، وقد وردت فى الاستغفار احاديث كثيرة ، منها ما أخرجه الترمذى عن عبد الرحمن بن صخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (انى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة) . واخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (ان عبدا أصاب ذنبا فقال — يارب أذنبت ذنبا فاغفره ، فقال سبحانه وتعالى ، علم عبدى أن ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا ، فقال يا رب ، أذنبت آخر فاغفر لى ، قال : علم عبدى ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى فليعمل ما شاء(٥) ، ... وروى البخارى ايضا عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا إله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر

---

(٥) حديث صحيح ، رواه البخارى ومسلم . والامام احمد وابن حبان .

ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى اغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت(٦) » .

إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ... الخ : لأن الله وحده هو القادر على الضر والنفع ولا يمكن لأحد من الخلق أن يرقى الى ملكوته مهما بلغت سطوته بين اقرانه ، لأن واهب القوى والقدر هو الله وحده ، وحاشا أن يبلغ العبد مرحلة يقارع فيها الرب جل وعلا ، وانما الله هو القادر على انزال العقوبات الرادعة للعباد .(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) (٧) .

وفى سورة الأنعام (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) . الآية (٦٥) .

كما أن ملكه تعالى لا يزيد بطاعة عبد ولا ينقص بمعصيته ، لأنه سبحانه هو الغنى المطلق المتفرد فى ذاته وصفاته وافعاله فملكه كامل لا يتصور فيه زيادة تحدثها عبادة عابد ، ولا نقص ينشأ عن عصيان عاص ، وذلك لأن ما عنده سبحانه لا يتناهى ، والنقص انما يتصور فى المتناهى ، وضرب الله « المخيط » وهو الابرة مثلا لأنها أصغر ما يشاهد ، وهو مثال تقريبى ليفهم البشر .

إنما هى اعمالكم احصيها : الاحصاء هو الجمع للتثبت من الشىء ، وضم بعضه الى بعض بحيث لا تفلت صغيرة مهما دقت ، ولا كبيرة مهما عظمت ، ولئن كان ذلك غير متصور واقعيا فيما مضى من زمان ، فان الأجيال الحاضرة تدركه ولا يمكن أن تنكره ، حيث أمكن تسجيل الحركات الخفية والسكنات الغائبة عن ادراك بعض الحواس على اشرطة مخترعة كشفها الانسان بعلمه الحادث ، فكيف بقدرة العليم الحكيم قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(٨) وقال جل شأنه (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) (٩) . وورد فى حق الخارجين على حدود الله (... ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا) (١٠) . فلا يتطرقن الى تفكير عبد أنه مفلت من تسجيل حسناته وسيئاته كما وقعت ، وانها معروضة عليه وإنه قارئها ، يوم النشور .

فمن وجد خيرا ... الخ : معلوم أن التاجر الماهر الناجح الباز أقرانه ، هو من يجرى حسابا شاملا لتجارته فى فترات معينة ليدرك مدى ربحه من خسارته ، كما يختبر السوق دائما ليرى اى السلع تنفق وأيها يبور فيغرق سوقه بما يروج فيه ، ويتحاشى مالا اقبال عليه ، وبهذا يسبق ويتقدم دائما ، وعلى النقيض منه ذلك المتوانى المتواكل الذى لا يهتم ببضاعته ولا يدرى عن

---

(٦) كان هذا سيد الاستغفار . لأن فيه الاقرار لله وحده بالألوهية والعبودية والاعتراف بانه الخالق ، والاقرار بالعهد الذى اخذه عليه ، والرجاء لما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وفيه اضافة النعماء الى خالقها واضافة الذنب الى نفسه ورغبة فى المغفرة واعتراف بانه لا يقدر على ذلك سواه ، سبحانه وتعالى .

(٧) الآية ٥٨ من سورة الكهف .

(٨) الآية ١٨ من سورة ق .

(٩) الآية ١٣ من سورة الاسراء .

(١٠) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

راس ماله وسوقه شيئا ، حتى يصطدم بالواقع المحس المؤلم ، فيعلن إفلاسه وينحسر عن مسرح التجارة والتجار ، ثم يبيد ويفنى ، ولا يذكر إلا بسوء المنقلب ، وبئس المصير والعياذ بالله تعالى وعلى هذا فقس رجالا عرفوا ربهم ودابوا على طاعته وشمروا عن سواعد الجد فى هذه الحياة يرجون تجارة لن تبور ، أكلوا من الطيبات وعملوا صالحا ، هؤلاء تلقاهم دائبين على تذكر خطاياهم ، مادين اكف الضراعة فى اخلاص لرب العالمين رجاء أن يباعد بينهم وبين ذنوبهم ، وحين يجدون حلاوة العبادة يسعدون ويسرون ، ويوم يلقون ربهم يلقون نضرة وسرورا ، أولئك رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه .

وعلى الضد نرى قوما عابثين لو حاولوا احصاء زلاتهم لوجدوها تجل عن الحصر وحينئذ لا يلومون إلا انفسهم حتى من أضلهم يتبرأ منهم ، ويردد كما ورد فى محكم الكتاب (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما اشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم(١١) .) وهذا لا يحمل على اليأس ولا القنوط ، وإنما يجب أن يطرق العاصى باب التوبة والاستغفار ، كما مر بهذا الحديث الشريف ، وواجب على الصنف الأول ان يشكر الله على ما وجد من خير أعماله (رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه) . وأما الثانى ، فينحو باللائمة على نفسه الأمارة بالسوء ، ولا يقنط من رحمة الله (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) .

هذا — وقد أخرج الترمذى هذا الحديث بزيادة على ما ورد فى مسلم ، ولا تخرج فى جملتها على ما تضمنته رواية الامام مسلم رحمهم الله جميعا ونفعنا بما خلفوا من تراث كريم .

٢ — **بايجاز** : نجد تعاليم الإسلام وقوانينه وما رسمه رسوله العظيم موحى من عند الله سبحانه تدعو البشر الى الدأب على العمل النافع ، والإستهانة بكوارث الحياة . واعتبارها ظواهر طبيعية ، واحداث لا بد منها ، لتصقل العقلاء ، وتنبه الغافلين ، وهذا الحديث الشريف من الأحاديث الجامعة للخير الكثير التى تدلنا بالبرهان على قدرة الله ورحمته بالعباد ، وتدعونا الى السير فى مدارج الوجود مترسمين خطى رسول الله فى الاستعانة به دائما . (إياك نعبد وإياك نستعين) .

ولا تصدنا عن غايتنا ابواب موصدة مهما كانت ، فلا مستحيل فى الدنيا ، بل كل شىء ممكن ، ما دام العزم قويا والإرادة حية والبصيرة جادة .

اخلق بذى اللب أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب ان يلجا

ولنراقب السميع العليم فى أعمالنا ، فهى محصية علينا ، ولا نفرط فى حقوق الأوطان ، ولا نهن أمام عدو ، ولا نتخاذل ، وإنما نجد ونسعى ، طالبين عون الله راجين نصره ، مضحين بكل عزيز وغال فى سبيل أهداف كريمة طيبة ، تخدم وتسعد الإنسانية جميعا ، وقد حكى القرآن العظيم على لسان أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام قوله (فستذكرون ما اقول لكم وافوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد) (١٢) .

---

(١١) الآية ٢٢ من سورة ابراهيم .

(١٢) الآية ٤٤ من سورة غافر .